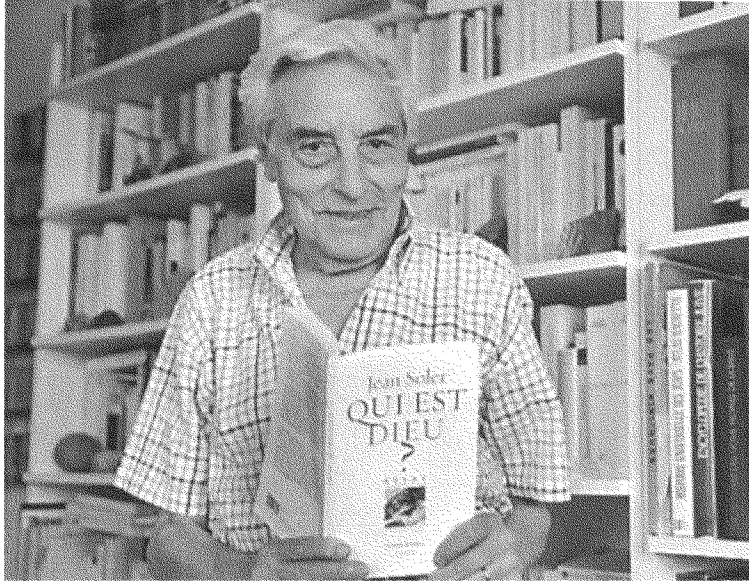


«من هو الله؟»: حضريات في التوحيد

❖ حميد زناز



كثيرًا ما تُطمس في الغرب أعمالٌ علميةٌ جريئة لباحثين تناولوا الديانات التوحيدية بعيدًا عن المؤلف السائد. ولا تفسير لهذا التعتيم سوى غرق هذا العالم في بحر الإيديولوجيا اليهودية - المسيحية، وعجزه المزمّن عن التحرر من أساطيرها المذلة للعقل.

ينتمي جون سولر إلى مفكرين قلائل درسوا الظاهرة الدينية دراسة عقلانية، وحلّلوا «الكتب المقدسة» تحليلًا تاريخيًا صارمًا. لم يتعامل معها في وصفها كلامًا منزلاً، بل كأدب إنساني لا غير. أمضى حياته قارئًا ومترجمًا ومحللاً ومخصّصًا للديانات التوحيدية في لغاتها الأصلية، فأثمرت جهوده المتواصلة منذ سنين أعمالاً مركزة دقيقة جمعها كتابه الضخم، بحثًا عن أصول الله الواحد، وهو في ثلاثة أجزاء: اختلاق التوحيد (٢٠٠٢)، وقانون

الفلاسفة قط، إذ هي «معاصرة في معظمها لتساؤلات سقراط وأفلاطون ومحاوَرَاتهما. لقد عدّلت وأكملت فيما بعد، بل هي في جزء كبير منها عملٌ استهلاني، أي ينتمي إلى الثقافة الإغريقية بعد الإسكندر الأكبر» (ص ١٢). ويقول سولر بالحرف الواحد إن التوراة «كتاب مثل الكتب الأخرى، وهو مساوٍ للإلياذة والأوديسة» (ص ٢٧).

– من الخطأ اعتبار التوراة أول من جاء بفكرة الإله الواحد في تاريخ الإنسانية. فالله اليهودي واحدٌ فحسب من بين آلهة القدماء الكثيرة؛ وهو إله قوميّ يعلن أنه سيكون وقياً لشعبه إن كان شعبه وقياً له فقط. التوحيد اليهودي تريبّ يعود إلى القرن الخامس قبل العصر الشائع فقط.

– لم تكن التوراة هي التي ابتدعت أخلاقاً كونيّة. فتعاليمها لا تهتمّ بالكوني أو بالإنسانية، وإنما بالقبيلة، وبالمحلّي الذي يجب ضمان وجوده وديمومته وتماسكه (ص ٢٢). وحبّ الجار في التوراة لا يتعلّق سوى بالنظير المشابه، العبري.

– من الخطأ الاعتقاد أن الرسل هم من رُوحن العبادّة العبرانية.

موسى (٢٠٠٣)، والحياة والموت في التوراة (٢٠٠٤). وفي العام ٢٠٠٩ عرض حصيلة ما سبق من تنقيب تحت عنوان: عنف الديانات التوحيدية. ومن عناوين هذه المؤلفات فتح سولر ملفّات حسّاسة، وقدم فرضيات معاكسة للوعي السائد. فنشرت الجامعة منه، ورفضت دور النشر المهيمنة على سوق الكتاب مخطوطاته، وتجنّبت وسائل الإعلام المتشدّقة بالحرية والتعدّد الفكريّ.

في من هو الله؟^(١) لخصّ سولر في ١٢٠ صفحة مكتفة مجمل النتائج التي توصل إليها طوال حياته العلمية. يستمتع القارئ معه أو يقشعر بدنه وهو يهدم، على مرّ الصفحات، الأساطير اليهودية، ومعها ضمناً كل ما تولّد من أفكار أصبحت لاحقاً – وبفعل التكرار – مسلّمات مسيحية وإسلامية.

يركز سولر في هذا النص على تعرية مغالطات شائعة حول التوراة وإله التوراة، الذي لا يعتبره ربّ الديانات التوحيدية الثلاث وإنما واحداً من بين آخرين يحمل اسم يهوه، ومصمماً ليكون رباً قومياً لليهود وحدهم:

– التوراة ليست أقدم من النصوص الفلسفية الأساسية، ولم تلهم

❖ كاتب ومترجم من الجزائر، من مؤلفاته: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، فصل الكلام في الرد على أهل الظلام.

(١) Jean Soler, *Qui est Dieu?* Editions de Fallois, Paris, 2012.

الرابع أو السابع ، على ما يكتب سولر. ومن هنا جسّدوا هويتهم في التوراة، وبذلك أصبحوا «شعب الكتاب» أو «الكتابين» (ص ٧٣).

– شيئاً فشيئاً تحوّل هذا الله الواحد إلى إله منتقم، غيور، محارب، وكاره للنساء. ويصل سولر إلى أطروحةٍ يربط فيها بين التوحيد والعنف، لأنّ التوحيد ببساطة يعني «عدم وجود آلهة أخرى». وفي مرحلة متأخرة تحوّل الإله الواحد إلى سلاح حرب لتمكين الشعب اليهودي من الاستمرار ولو على حساب الشعوب الأخرى. ولئن أوصى يهوه بأن «لا تقتل أبداً»، فتلك وصية قبطية تخصّ الشعب اليهودي فقط لا الإنسانية كلها (ص ٧٩). نقرأ في سفر الخروج أنّ ٣٠٠٠ شخص قُتلوا بأمر يهوه، ولهذا السبب يُطلق عليه في التوراة «يهوه الحروب» (ص ١٣). وهو يدعّم رأيه بقول سبينوزا إنّ القوانين التي أوحى الله بها إلى موسى لم تكن سوى تشريع خاصّ لدولة العبرانيين؛ أيّ إنها لا تلزم كلّ الشعوب، وليست كونية (ص ١٩). كما يشير المؤلّف إلى الإبادة الجماعية التي ارتكبتها اليهود في حقّ الكنعانيين، ويذهب إلى حدّ وصفها بالتطهير العرقي. وهو يذكّر أنّ كتاب يشوع تحدّث عن تهديم قرابة ثلاثين حاضرة، متسائلاً ما إذا لم يكن اليهود هم أول من ابتكر الإبادة الجماعية وأدخلها إلى تاريخ الأدب العالمي، ومؤكّداً أنّ لهذا الأمر دلالة في ما يتعلّق بنزوع اليهود إلى ما نسميه اليوم تطرّفًا.

– تبقى كبرى الكباير التي ارتكبتها صاحبنا في نظر المتلاعبين بالعقول في عالم اليوم، هي فكرته حول المحرقة اليهودية. فهو لا يعتبرها حدثاً فريداً مطلقاً يتجاوز الإدراك البشري. إنها حدث تاريخي، لا أسطوري. وكلّ ما عدا ذلك جهدٌ بائسٌ لتثبيت الفكرة القائلة بأنّ الله فضّل الشعب اليهودي مهما كان الثمن.



في هذا الكتاب انحاز سولر إلى الحقيقة التي تلقى، ولم يجر وراء الأوهام المطمئنة، بل سرد تاريخ «الله» انطلاقاً من التراكم المعرفي لا غير.

لقد أعلن سولر حرباً علميةً ضدّ الديانات التوحيدية لا بهدف العودة إلى تعدّد الآلهة، وإنما بغية الخروج من أسر النظرة اليهودية – المسيحية التي تسيطر منذ ألفيّين، والدخول في عهد جديد يخفّ فيه التعصّب ويتخلّص فيه الناس من الشعور بالإثم المجاني ومن فكرة الحرام. وفي انتظار نهضة جديدة، لا سبيل بالنسبة إلى سولر سوى انتهاج الشكّ العقلاني في مواجهة اليقين الديني، وأنّ كئنا نعلم أنّ الصراع بين الحقائق الثابتة والعماء الطوعي سيدوم عشرياتٍ أخرى (ص ٧٨).

فبالنسبة إلى ناس التوراة لا حياة بعد الموت، وفكرة «البعث» أخذت من الفرس وظهرت في القرن الثاني قبل المسيح. أما فكرة «خلود الروح» فغائبة من التوراة وقد سُرقَت من اليونانيين. ولم تذكر التوراة الحياة الروحية قط (ص ٢١).

– نشيد الأنشاد لا يمجد الحبّ المتبادل بين الربّ والشعب اليهودي، وإنما هو قصيدٌ غنائّي يبدأ على لسان الفتاة بالآتي: «فليقبّلني قبلاّت بضمه. ملامساتك أشهى من الخمر... حبيبي هولي كسلّة تمر، بين نهدّي يقضي ليلته». لا يرى سولر أيّ «تشفير ربّاني» في هذا النشيد، ولذلك لم ينجح المفسّرون اليهود والمسيحيون في تحويل هذه الأبيات التي تتغنّى بالشباب والجنسانية السعيدة إلى حكاية دينية صوفية (ص ٢٣).

– لا شيء يثبت أنّ الله في التوراة كلّف اليهود بخدمة الإنسانية. فلقد مجّد نقاءهم، ومنع امتزاجهم بغيرهم؛ ومن هنا تلك الممنوعات والنواهي الغذائية، والقوانين والقواعد. لقد أراد هذا الربّ التفرقة والتمييز، ومنع إمكانية تبادل الدين، وفكرة العهد مع الأمم الأجنبية. هذا الله، إذن، إله إثني وقوميّ وذو هوية محدّدة.

– في الأصل، كان العبرانيون يؤمنون بألهة تولد وتموت. كانت مختلفة ومتعدّدة، ولم يكن العبرانيّ موحّداً. وكما كان شائعاً بين الآلهة القوميين في ذلك الوقت، فقد كان لربّهم يهوه امرأة، هي أشيرا، ملكة السماء. وكانوا يقدّمون إليها القرابين. وقد عثر علماء الآثار على جملة «يهوه وأشيرته» منقوشة على الحجر (ص ١٧).

– الله الواحد الأحد يولد حين يقتضي الأمر تبرير سبب توقّف الله القوميّ أو عجزه عن نصرته شعبه وحمايته. وقد فرض التوحيد نفسه في النصف الثاني من القرن الرابع، وذلك لظروف تاريخية بحتة يسردها سولر بالتفصيل – ابتداءً من الخروج من مصر وتكوين المملكة، ثم إنشاء مملكة السامرة المستقلة وضمّها من طرف الأشوريين في القرن الثامن وتهجير الشعب، وصولاً إلى تهديم أورشليم من طرف الملك البابلي نابوشودونوسور في بداية القرن السادس. وإذ يفحص سولر شهادة ميلاد الله الأحد، يصل إلى أنّ اليهود اتخذوا من إله الفرس ربّاً لهم بغية الفوز بفوائده لأنّه يكافئ هذا الشعب أو ذلك بحسب جدارته (ص ٧١). وهكذا توقّفوا عن تسمية الإلهم «يهوه» وأسموه الرب، المولى (ص ٣٠). ومن ثم أعادوا كتابة الفصل الأول من سفر التكوين (ص ٤٧). لكنهم حين أحسوا بخطر الانقراض، بحثوا عن الخلاص في النصّ المكتوب، واختلقوا موسى النبي الذي يكتب التوراة رغم أنه لا يعرف الكتابة إذ إنّ العبرانيين لم يبدؤوا كتابة لغتهم إلا ابتداءً من القرن

بدأ جون سولر حياته المهنية في ميدان التربية والتعليم. فعمل أستاذاً للغات الفرنسية واليونانية واللاتينية في ثانوية البلدية (الجزائر) في إطار تأديته للخدمة العسكرية (١٩٥٩-١٩٦١)، وكذلك في الثانوية الدولية بفونتان بلو (فرنسا ١٩٦١-١٩٦٤). ترك التعليم والتحق بوزارة الخارجية، ليبدأ العمل الدبلوماسي – الثقافي في عدّة سفارات فرنسية عبر العالم: بولونيا (١٩٦٥-١٩٦٨)، الكيان الصهيوني (١٩٦٨-١٩٧٣)، إيران (١٩٧٣-١٩٧٧) بلجيكا (١٩٧٧-١٩٨١)، وليعود ثانية إلى إسرائيل، مستشاراً ثقافياً في السفارة الفرنسية (١٩٨٩-١٩٩٢). ترك العمل الرسمي ابتداءً من ١٩٩٢ لينعزل بموطنه الأول كاتالونيا وليبدأ في تحرير ما تراكم لديه من مطبوعات وأفكار منذ سنين.